المحاضرة الرابعة:

الأدب العربي في العصر الوسيط / أغراض الشعر التقليدية / المرحلة الثالثة

شعر الغزل:

الغزل فنّ أدبي جميل له صلة وثيقة بحياة الرجل والمرأة، وكنت قد درست - عزيزي الطالب - في مراحل سابقة نماذج من شعر الغزل في أدب العصور المتقدمة كالعصر الجاهلي والعصر الاسلامي والاموي، وعرفت خصائصه الموضوعية والفنية في كلّ عصر. وهو يطالعنا بكثرة – أيضاً - في شعر العصر الوسيط الذي ندرسه، وقد أفرد له الشعراء قصائد ومقطوعات واستهلوا به النظم في فنونه المختلفة، ومما يلفت النظر أنّ جانباً منه لم يأت عن معاناة صادقة، وإنما جاء تظرفاً وملاحة، فها هو ذا ابن الوردي – مثلاً – ينضم مئة مقطوعة في الغزل بالمذكر، ويُصرح في واحدة منها أنّه قالها مجاراة لذوق عصره:

والله مـــا المُرْد مرادي وإنْ نظمـــت فيهـم كعقـود الجُمَـان

لكـــن مـــن رام نفاق الذي يقولــه ينظم خـــــرج الزمان

(مَرَدَ الغلام مرداً: نبت شاربه. فهو أمرد. والجمع مُرْدٌ. والجُمَان: اللّؤلؤ. واحدته جُمَانة. ومَلُحَ الشيء من باب ظَرُف وسَهُلَ، أي حَسُن، والمليح: امْتَلَح الغلام خلط كذبا بصدق. والمُلْحَة: ما اسْتُحْسِن من الأحاديث).

ومنها قوله في مليحة اسمها مي:

قلت لمي أنـــــا في حبكم مَيْت فدتـــكَ النفس من مي

ترين ماذا فيّ، قالت: أرى أنْ (يخرج المَيْت من الحي)

إنّ هذا الشعر البارد – كما يبدو – قاله الشاعر ليتحلى بلفظه ويزين به ديوانه، فهو مصنوع من غير قلب يخفق، او جناس يحس، ولذلك لا ينجذب إليه القارئ، ولا يردده كما يردد الشعر الغزلي الممتع الصادر من نفوس هائمة في محراب الجمال عشقاً ووجدا ... وبالرغم من هذا الضعف، كانت قدرة بعض الشعراء عالية في نظم الشعر المصنوع، بلغة رقيقة مستملحة، من ذلك قول الشيخ قطب الدين النهرواني:

أقبـــل كالغصـن حيـن يهتزْ فـــي حللٍ دون لطفهـا الخزْ

مهفـهـف القـــــدِّ ذو مُحَيَّا بعـارض الخدّ قـــد تطـــرزْ

دار بخديـــــه واو صُـــدغ والصـــاد مـــن لحظـه تلـوز

حَـــزَّ فـــؤادي بسيفِ لحـظٍ أوّاه لـــــو دام ذلك الحـــزْ

أَفْديـــهِ مـــن أَغْيَد مليـــحٍ بالحُسْنِ فـــي عصـرهِ تميّزْ

كان نديمـي فَمُـذْ رآنـــــي أَسِيْرهُ فـــي الهـوى تَعَـزَّزْ

(الحلل: الثوب الجيد والرقيق الجديد. الخزّ ثياب تنسج من الصوف أو إبرسيم. محيّا: بشاشة الوجه. مهفهف: رشيق أو ضامرة البطن. والقدّ: الشق طولا. والقدّ: القامة. الصُدْغ: ما بين العين والأذن. ويسمى ايضا الشعر المتدلي عليه صدغا، يقال صُدغ عقرب. واللحظ: النظر بمؤخر العين ...). هنا الشاعر يستعين بالألفاظ الحسية ويكثر منها في غزله بهذا المحبوب ويبرز صفاته المعنوية كذلك كالصدّ والبعد والتمنع ... ولابد من الاشارة هنا – أيضا - إلى أن شعراء هذا العصر كانوا يميلون إلى معارضة القصائد الغزلية بكثرة، ولاسيما القصائد المشهورة منها في الغزل لمن سبقهم من الشعراء، أو من عاصرهم، مثل معارضة الشاعر محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي لقصيدة الشيخ قطب الدين النهرواني التي ذكرناها سابقا. عارضها بقوله:

مـــــــــا لفتى للجمـــال أبـــرزْ قـــــد فتـن العالــم المحيّزْ

كما عارضها الشيخ نجم الدين الغزي بقوله:

سبحان مـــن للـوجـود ابـــرزْ رَشَـــا بحكم الهـوى تعـــززْ

زاد علـــى الرِّئْـــمِ فـــــي دلالٍ وعـــن جميـــع المَهَـا تميـزْ

(الرئم: الظباء البيض الخالصة البياض. المها: جمع مهاة، وهي البقرة الوحشية. رشا ولد الظبية إذا قوي وتحرك ومشى مع أمه ...).

وهكذا نظم هؤلاء الشعراء الثلاثة قصائدهم الزائية في بحر قصير الوزن وقافية موسيقية تصلح للإنشاد والغناء دون أن يكون هناك محبوب حقيقي اضناهم حبه واسقمهم هواه!!

ومثل هذا الغزل كثير جداً، يعود فيه الضمير على المذكر، ويبدو أنّ احتجاب المرأة وحجرها في دارها، وعدم السماح لها بمخالطة الرجال ومجالستهم حتى المقربين منها، منع الشعراء من التغزل بها صراحة، حفظا لسمعتها، وخشية من أهلها.

فضلاً عن ذلك أنّ نظم الشعراء في هذا النوع من الغزل جاء مجاراة لذوق العصر، ومن أسباب شيوعه أيضا وجود الغلمان بكثرة في القصور، والمنازل، والحانات، وغيرها...

ولابدّ من الاشارة هنا، ليس كل خطاب للمذكر يراد به المذكر، بل أنّ فريقا من الشعراء قد خاطب المذكر واراد به المؤنث، فوصفوا الغلام في اعضائه كما توصف المرأة في قدّها وخدّها وخصرها وشعرها ... حتى في غنجها ودلالها، ووصفوا الوجد والهيام والترصد واللحاق كما وصفها المتيمون في حب النساء، ولكنهم لم ينحدروا إلى المعاني المبتذلة التي نجدها عند بعض الشعراء، من مثل مطيع بن إياس، وابن حجاج، وغيرهما.

يقول الشاعر ابن نجا الضرير، وهو يبثّ شكواه من الحبيب: (للحفظ)

تذللتُ لـــو أَنّ التَّـــذلل ينفـــــعُ وافرطتُ في الشكوى لو أنّك تسمعُ

وامسى خضوعي للحبيبِ سجيّتي وهل نافعي للحُبِّ إِنّـــــي اخضعُ؟

ومن عَجَبٍ أَنّـي بِحُبّك مُوْلِـــــعٌ وأنت ببغضي والقطيعة مُـــوْلَـعُ

نَصِيْبُكَ منّي الحُبُّ والوصـلُ كلُّـه ومنك نصيبي البغضُ والهجرُ أجمعُ

فـؤادكَ ممّا بي مـن الشّوقِ فـارغٌ وقلبـي مـلآنٌ مـن الحـزنِ مُوْجـعُ

ووجدي وصبري في هواكَ تحالفَا فوجـدي مقيـمٌ واصطبـاري مـودعُ

الشاعر هنا يبثّ شكواه من الحبيب الي اصم أذنيه وكأنّه لا يسمع بع أن وقع أسير سجنه الذي لا يبرح عنه، فالحبيب: البغض سجيته، والقسوة طبيعته، وقد نفد صبر الشاعر، وتزاحم وجده..

وكثيراً ما نجد معاني الشعراء وصورهم مكررة ومتداولة، أي لا أصالة فيها ولا ابداع -ولاسيما في شعر الغزل - بسبب كثرة التقليد والفقر الفني.. من ذلك مثلاً قول حسن بن محمد البوريني متغزلاً:

أحوّل وجهي حين يقبل عامـــداً مخافـــــــة واشٍ بيننا ورقيـبِ

وفـــي باطني - والله يعلم- أعينٌ تلاحظـــه فـــي اضلـعٍ وقلـوبِ

(الواشي: الساعي ما بين الاثنين بالكذب، واللفظة مأخوذة من وشي الثياب: نمنمه وزوقه وحسنه..).

وهو المعنى نفسه نجده في قول البحتري:

احنو عليك وفـــي فؤادِي لوعةٌ واصـدَ عنك ووجـــه ودّي مقبل

ولم يكتفِ الشعراء - اقصد شعراء الغزل - في هذا العصر بالالتفات إلى معاني الشعراء القدامى الكبار والاتكاء على صورهم واخيلتهم، بل راحوا يعارضون قصائدهم المشهورة، مثل قصيدة الشريف الرضي الكافية المشهورة التي يقول في مطلعها:

يـــا ظبية البانِ ترعى في خمائلهِ ليهنكِ اليـــومَ أنّ القلبَ مرعـاكِ

(البان: ضرب من الشجر واحده: بانة. الخمائل: الشجر المُجْتِمع الكثيف. ليهنك: هَنَأ. هَـنُـؤَ، وهَـنِئ: كلّ أمرٍ أتى بلا تعب، فهو هَـنِئٌ).

وقد أحسن في معارضتها أبو اسحاق مخلص الدين إبراهيم بن محمد بن هبة الخزاعي، فقال في مقدمة قصيدته:

يا جنة الطـــــرف نـار القلب مأواكِ ومـــا توقدهـا مـــن برد ذكراكِ

ويا مهاة الدُّمى كلّ الدمـــــــاء لـــكم حلّ، فمنْ بحـــرام الفتك أفتاكِ

حاشـاك يـا ظبية الأنس التي افترست أسـد العرين مـــن التأثيم حاشاكِ

وفعلاً أجاد الشاعر في معارضته لقصيدة الشريف الرضي، وهي أجادة حسنة، وتميزت معارضته بحسن البيان وجودة العرض وحسن السبك في الألفاظ والمعاني، كما أنّه أحسن في وصف معاناة فؤاده المعذّب بهوى حسنائه الرشيقة في قدها، الوسيمة في جيدها ومحياها ...

وثمة معارضة أخرى لطيفة لابن حجة الحموي، لقصيدة الشريف الرضي، يقول في مطلعها:

طربــتُ عند سماعي وصفَ مغناك فكيف لـــو كان هذا عند مغناكِ

يـا ظبيةً نفرتْ عن مرتعي، ورعتْ حشاشةَ القلبِ: عين الله ترعـاكِ

لقد ذكرنا من قبل أنّ من أسباب المعارضات الشعرية في هذا العصر، قلة الابداع لدى الشعراء، وذلك اضطرهم الالتفات إلى معاني القدماء من الشعراء الكبار، والاتكاء على صورهم وأخيلتهم.. اعجاباً واقتداءً، ولذلك راحوا يعارضون المشهور من قصائدهم، في الوزن والقافية والموضوع والأسلوب واللغة... بل أنّ بعض هذه المعارضات الشعرية من القصائد التالية كانت مشهورة مثل سابقتها أيضا، ومتفوقة في مجال الابداع الشعري، وهذا دليل على التمكن الفني والاجادة الشعرية للشعراء المتأخرين.

وشاعت آنذاك المخمسات الغزلية وكثرة، وهي في الغالب تعتمد على شعر الشعراء السابقين، وقد أحسن بعضهم واجاد في نظمها بناءً ومعنىً، من ذلك مثلاً مخمسة جلال الدين بن محمد بن عمر (ت916هـ) لأبيات مشهورة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمّساني:

غِبْتُم فَطَرفي من الأجفانِ ما غمضا ولم أجدْ عنكم لي في الهوى عِوضَا

فيـا عَـذُولاً بفـرط اللوم قـد نهضـا (للعاشقيـن بأحــكامِ الغـرامِ رضَـا

فلا تكن يا فتى بالعذل معترضا)

إنَّ الوفــيَّ بعهد ليس ينتقضُ وإنْ همو نقضوا عهدي وإن رفضوا

فقلتُ لمّا بقتلي بالأسى فرضوا (روحي الفداء لأحبابي وإنْ نقضوا

عهد الوفيّ الذي للعهد ما نقضا)

ويجب أَنْ لا يغيب عن البال أَنَّ الموشحات أخذت أيضاً طرفاً من شعر الغزل، وكان الشعراء المشارقة مجيدين في نظمها إجادة لا تقلّ عن إخوانهم المغاربة.

وفي هذا العصر نجد النسيب التقليدي ينحسر انحساراً كبيراً حتى يكاد يكون كله غزلاً حقيقياً، بعيداً عن كلّ تعقيد، كما في مطلع هذه المدحة التي جاء فيها قول الشاعر الشاب الظريف:

يا راقــدَ الطرفِ، ما للطرف إغفاءُ حدَّثْ بذاك، فما في الحبِّ إخفاءُ

إنّ الليالـيَ والأيـــــــامَ منْ غَزَلي فــي الحسنِ والحبِّ أبناءٌ وأنباءُ

إذ كلُّ نـافرةٍ فـــــــي الحبِّ آنسةٌ وكلُّ مائسةٍ فـــي الحـــيِّ خضراءُ

وصفوةُ الـــدَّهرِ بحرٌ والصَّفـا سفنٌ وللخـــلاعـةِ إرســـاءٌ وإســـراءُ

(آنسة: الفتاة غير المتزوجة وهو لقب احترام، والجمع أوانس وآنسات. ومائسة: ماسَ يَمِيْسُ مَيْساً ومَيْسَاناً فهو مائسٌ: الشخص أختال في مشيتهِ وتبختر. نقول: ماسَتْ الحسناء، أي تبخترت في مشيتها.)

استطاع الشاب الظريف ببراعة ومهارة أنْ يتخذ من نسيب مديحه صورة حقيقية عن حياته الخاصة، وقد أنساه الغزل ذكر النسيب، فيغدو غزلا حقيقياً يمثل لدى الشاعر تجربة عاطفية خاصة..

كما قلّد شعراء هذا العصر الشعراء القدامى في الصور والأخيلة والمعاني التقليدية، والاساليب الجاهلية كما في قول الشاعر:

لـــــولا بروقٌ بالعقيق تلوحُ تغـــــــــدو علـــى عذباتهِ وتـروحُ

مـــــا زاد قلبي لوعةً كلا ولا أدمـــى خـــــدودي دمـعي المسفوح

ويح الصّبا، حتَّام يُذكرني الصِّبا؟ منهـــا نسيـم كالعبيـر يفـــوحُ

خطرتْ، وقد أهدى لنا منهـا الشَّذا غـــارُ الغويـــرِ ورنـــدُهُ والشِّيحُ

يـــــا أهل وُدِّي يـــــــومَ كاظمـــةٍ عن وصلِكُم صبري الجميل قبيحُ

سِرْتم وأسرَرْتُم بقلبـــي مُهجـــةً أوْدى بهـــا التقريـحُ والتبريـحُ